سِنوحي ورحلته الشامية

أقدم رحلة مدوّنة

د. نقولا زيادة

(1) المقدمة

وقعت مصر، في الفترة الممتدّة نحو ثلاثة قرون بين 2300 و2000 ق. م.، وهي أيّام حكم الأسَر التاسعة والعاشرة والحادية عشرة، فريسة توزّع القوى والسلطات بين الأمراء ونبلاء الاقطاع وحتى زعماء القوات المحلية، فأصابها فوضى واضطراب في شؤونها الاقتصاديّة، وتأثّر المجتمع المصري بذلك كله، فكاد أن يقع فريسة لكل ما من شأنه أن يفتته. وكان من مظاهر الاضطراب السياسيّ أن تَزامَنَت الأسر فَحَكَم الإهناسيّون في الشمال في الفيّوم، كما أنّ حكام طيبة سيطروا على الجنوب في الوقت ذاته. وثمّة أسرة، هي العاشرة، كانت ضائعة الهويّة، بالنسبة للاسر المعاصرة لها.

على أن الأمر المهمّ من وجهة النّظر الشعبية، هو أنّه كانت ثمة نبوءة (تعرف بنبوءة نَفْرَرْ هُو) تعود إلى زمن سابق، مؤدّاها أنّ هذه الحالة لن تدوم. إنّ منقذاً سيأتي كي يخلّص البلادَ والشعبَ من الفوضى ويعيدَ إلى البلاد نشاطها ووحدتها وحياتها. وخلاصة هذه النبوءة، إن جازت التسمية، هي: «إن المخلّص/المنقذ سيأتي ليزيل هذا الشقاء الذي استمرّ فترةً طويلة. سيكون هناك ملك يأتي من الجنوب يُدعى «أميني» وهو ابن امرأة من النوبة... طفلٌ من الصعيد سيتسلّم التاج الأبيض (تاج الصعيد) والتاج الأحمر (تاج الدّلتا)، وسيوحّد القوتّين (الإلهتين اللتين تحميان الأرض)... ألاَ فليَسعد أولئك الذين سيعيشون في عهده! سيكون من نسلِ نبلاءٍ، وسيبقى اسمُه إلى الأبد! أما أولئك الذين يميلون إلى ارتكاب المعاصي وإتيان الشرور، ويرسمون الخطط للمؤامرات فستخمد أنفاسُهم ذُعراً منه، وسيعيد هو الحقّ إلى نصابه. والذين يخدمون الاله فسيفرحون[1].

والذي يجب ألّا يغيب عن البال هو أنّ هذه الفترة السابقة لسنة 2000 ق. م. بقرنين أو ثلاثة قرون، شهدت اضطراباً كبيراً في تنقّل الشعوب في منطقة الشرق الأوسط (ولنسمح لأنفسنا باستعمال هذا التعريف الحديث)، فتعرضت مصر لهجمات من الآسيويّين الذين احتلّوا شرق الدلتا، ولعلهم لم يستقروا فيه. والنبوءة المذكورة تصف حالة مصر كما

يلي: «النيل جاف والناس يخوضونه سيراً على الأقدام، الرياح الجنوبيّة شديدة والمقابر لا يُعنى بها أحد. الناس تأكل طعام القرابين من شدّة جوعهم. البلاد في بؤس وضنك... الضحكات مبعثها اليأس، وليس من يبكي من ذكر الموت. إن الرجل لا يتحرّك من مكانه حين يرى رجلاً يقتل شخصاً آخر. الابن عدو لأبيه، والأخ لأخيه. الرجل يقتل أباه، والمرء تُغْتصب أملاكه وتعطى للغريب». أما الإشارة إلى الآسيويين فقد جاءت في الوصية على النحو التالي: «أفرَخَ طيرٌ أجْنَبيٌّ في مستنقعات الدلتا، وصنع له وكراً هناك. الناس في بؤس لأن هؤلاء البدو محتاجون إلى الطعام... الأعداء في شرق الدلتا... الآسيويون ينزلون إلى مصر... وحوش الصحراء تشرب من ماء النهر»[2].

ولكنْ المنقذ سيأتي، وصاحب النبوءة نَفَرَرْ هُو، يتحدّث عن هذا المجيء على النحو التالي: «ما هذا الذي أراه؟ إنّ الغمّة تنجلي، والغبار ينجاب، والشمس تشرق. وهذا ملكٌ عظيمٌ مقبلٌ من الجنوب... فانعموا يا بني عصره بهذه السعادة التي أتيحت لكم! إنّ رجلاً عظيماً، سليل بيت كريم، قد نُقِش اسمه في سجل الخلود. انظروا إلى الشرّيرين كيف يتوارون عن الأنظار، وإلى الجبّارين المعتدين كيف ذُلّت أعناقهم وخفتت أصواتهم، وإلى الآسيويين الأجلاف كيف يُقتلون ويمزقون،.. يا له من ملك عظيم استطاع أن يكرّ على الأعداء بيمينه، ويخضع الثوار بيساره. وقد أجلى الأعداء عن أرض الوطن بَسطْوه وبأسه. وجمع حوله القلوبَ النافرة بهيبته وعدله. وعلى جبينه اللامع يبدو ثعبانُ الملك. لا تكاد تبصره العيون حتى تستشعر الهيبة والتقوى، ولكنّه لا يكتفي بقهر الأعداء وتمزيقهم، بل يقيم في شرق الدلتا أسواراً وحصوناً، كي تَردّ وحوش الصحراء، إذا هم حدثتهم أنفسهم مرّة أخرى بأن ينقضوا على هذا البلد الآمن. فانظر إليه كيف يفيد عصره والعصور التي بعده»[3].

هذه نبوءة نُفْرَرْ هُو، في جوهرها. أما تحقّقها فقد تمّ في زمن الأسرةِ الثانية عشرة في عهد المملكة المتوسّطة.

تبدأ المملكة المتوسّطة بالأسرة الحادية عشرة ويَمتدّ عصرها من حوالي 2133 إلى 1786 ق.م. وكانت طيبة مقر الأسرة الحادية عشرة، وكان حكمها يشمل مصر العليا أو الجنوبية. أما مصر الشمالية فكانت تحكمها أسرة أخرى من مدينة «إهناسية» (على مقربة من الفيّوم الحالية). وهكذا فإن مصر ظلّت قسمين، وظلّ فيها أمراءُ ونبلاءُ إقطاع وزعماءُ ثائرون يستمتعون بشيء من السلطة. ومع ان أمِنِمْحات (الأول) وحّد مصر، فإنه لم يستطع القضاء على أصحاب السلطة المحلية تماماً[4].

كان النوبيون قد تدفقوا على الجنوب المصري مهاجرين أولاً ثم مستقرّين فيها بعد. وكان بينهم أمراء، كما كان هناك أمراء بين السوريّين الذين هبطوا شرق الدّلتا وبين اللّيبيينّ الذين هاجموا البلاد من الغرب. والمرجح أن أمِنِمْحات هذا اغتنم فرصة خلاف بين المتنافسين على العرش، وكان أقوى رجل في الدولة وكذلك كان أميراً بالوراثة، فتولّى الحكم. وكان قد جمع حوله جماعة من الشباب المخلص القويّ بمبادئه وأخلاقه، فانضمّت الجهود بحيث بدأ على يد هذا الملك الشاب عصر ذهبي جديد لمصر.

وقد عُيِّر أمِنِمْحات هذا بأنّ أمّه نوبيّة، وقصد من ذلك الطعن في شرفه، فلم يأبه لذلك. وحتى لما أراد صانع تمثاله أن يُجمِّل أنفه بحيث لا يظهره أفطس نوبياً، رفض الملك ذلك. وكان يفخر بالدم النوبي الذي كان يجري في عروقه.

وقد ترتّب على تولّي هذا الملك العرش، فضلاً عن توحيد البلاد، أمران مهمّان: الأوّل نقلُ العاصمة من «طيبة» إلى مكان يقع في وسط البلاد في مدينة جديدة سمّاها «إيثْت تاوي» (وتعني «التي تسيطر على

الأَرْضَين»). ومن هذا الموقع كان يمكنه أن يتّصل بأهل الشّمال المصريّ وزعمائه، ويشرف على أعمالهم إشرافاً مباشراً. والأمر الثاني هو أن الملك انتسب إلى الإله «آمون» فتسمّي «آمون إم حات» (أمِنِمْحات). ومن هذا الوقت بدأ اسم آمون ينتشر في البلاد وأصبح يُنظر إليه على أنّه ملك للآلهة (أما إلى ذلك الوقت فقد كان رَعْ هو الإله الابرز).

وأقام الملك الجديد حكماً قوياً، وبنى «جدار الأمراء» وهو سلسلة من التحصينات أقيمت لحماية شرق الدلتا من هجمات الأمراء الآسيويين[5].

ويبدو أن أمِنِمْحات هو الذي ابتدأ العمل بإشراك وليّ العهد مع الملك في إدارة الدولة؛ وكان يرمي من ذلك إلى أمرين: الأوّل تدريب الملك المقبل على الشؤون الملكيّة العامة، والثاني تجنب الخلاف الذي قد يعقب وفاة الملك، فيكون الانتقال على العرش عادياً. ولذلك ففي السنة الحادية والعشرين من حكمه (حكم ثلاثين سنة من 1991 إلى 1962 ق. م.) أشرك ابنه سَنوسِرت بالحكم (ودام ذلك نحو عشر سنين). وكان ذلك، على الراجح، بُعيد نجاته من مؤامرة دُبِّرت لاغتياله خلص منها بشيء من الأعجوبة. وقد وَضَع بعد ذلك ما عُرِف بتعاليم الملك أمِنِمْحات، وصف فيها المؤامرة ثمّ وجه بعض النصح لابنه. وقد جاء في هذه التعاليم قول الملك موجهاً إلى ابنه:

«حدث ذلك المكروه [المؤامرة] حين لم تكن إلى جانبي... حين لم يكن يعرف البلاط أنني تنازلت عن سلطاتي لك... حين لم تكن قد جلست معي على العرش بعد». وكان الملك أمِنِمْحات يرى في المؤامرة نكراناً للجميل، لذلك يوصي ابنه قائلاً: «كن على حذرٍ من أتباعك... لا تقترب منهم... ولكن لا تكن وحيداً. لا تثق بأخيك ولا تعرف لك صاحباً، ولا تقرب إليك شخصاً. إنّ هذا لا يجدي. إن نمت فدع قلبك يحرسك فليس الأعوان لوقت الضيق. إنني أعْطيت الفقير وأطعمتُ اليتيم وحقّقتُ أهداف من لا أمل له، ولكنّ ثمنَ العطف كان خيانةً... إن مَنْ أكَلَ خبزي احتقرني، ومن أعنته رماني، حين اشتد ساعده... والذين كسوتهم بكتّاني الرقيق نظروا إليّ كما ينظرون إلى خيال، ومن دهنتهم بعطوري رشّوا عليّ الماء»[6].

حوالي السنة 1960 ق. م. كان سَنوسِرْت يقوم بحملة عسكريّة ضد اللّيبيّين، وكان أبوه لا يزال على قيد الحياة. وقد انتصر الجيش في حملته، وكان سَنوسِرْت في طريق عودته لما جاءته الأنباء بوفاة أمِنِمْحات. حدث هذا «في العام الثلاثين [من حكم الملك] في اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان إذْ دخل الاله في أفقه وطار أمِنِمْحات إلى السماء واتّحد مع الشمس وامتزج جسدُ الإله مع خالقه... فسكنت العاصمة وامتلأت القلوب شجناً وأُغلقت البوابتان الكبيرتان وجلس رجال البلاط ورؤوسهم على ركبهم، وعم الحزن الناس... وكان الإله الطيب سَنوسِرْت... في طريق العودة ومعه أسرى تِجنو [ليبيا] وجميع أنواع الماشية التي لا تُحصى. وأرسل أمناء القصر الملكيّ إلى الحدود الغربيّة رسلاً لينبئوا ابن الملك بما حدث في القصر. وقابله الأمناء في الطريق، وقد وصلوا في المساء، فلم يتأخّر لحظة. وطار الصقر سَنوسِرْت مع تابعه ولم ينبىء الجيش».

ولسنا نعرف فيما إذا كان موت أمِنِمْحات طبيعياً أم أنه قتل في مؤامرة جديدة[7].

وتولى الحكم سَنوسِرْت[8] وظلّ في الحكم ثلاثاً وأربعين سنة (1971-1928 ق. م.) وأشرك فيها ابنه معه في آخر سنتين فقط. وقد صرف الملك الجديد همّته نحو تقوية الملكيّة وتركيز السلطات في يده وبناءِ الهياكل وتجديد المعابد. وشهدت سِرابَة الخادم في سيناء جهودَه هناك وعمله الجاد في مناجمها. وكان نشاطه الحربي كبيراً وموزّعاً على حدود المملكة وما

وراءها، خاصةً في الجنوب حيث اهتم ببلاد النوبة. وأغلب الظنّ أنه كان يهتمّ بها كمصدر للذهب. ونحن نميل إلى أن سَنوسِرْت كان شديد الحرص على تأمين الطرق التجارية التي تصل مصر بالبحر الأحمر ومنطقة الواحات، وضبط التجارة البحرية في البحر المتوسط وموانئه.

وعلى كل فقد خلّف سَنوسِرْت لابنه أمِنِمْحات (الثاني) دولة قويّة لما مات سنة 1928 ق.م.[9].

هنا تبدأ قصتنا مع سنوحي الذي قضت عليه الظروف أن يكون أوّل رحالة في التاريخ دوّن أخبار رحلته، ولو أن هذا التدوين جاء نتيجة لمحاولته تفسير تصرّفه أكثر منه بقصد كتابة أخبار هذه الرحلة بالذات.

كان سِنوحي الأب من كبار زعماء طيبة الذين جُرّدت أسرهم من ضياعها وأملاكها. وهذا ما حمل سِنوحي الكبير أن يقول لابنه، الذي كان يحمل الاسم نفسه: «لا تحسبنّ يا سِنوحي الصغير أن النبل والشرف خلق يورث، أو طبع يمتاز به أناس على أناس. ولا هو دم زكي يجري في عروق دون عروق؛ بل إنّ الشرف في كلّ عصر وكلّ بلد يتألّف من أرض ومن طين ومن بقر وغنم وحمير، وما يتبع ذلك من مواد وغلات وبيوت ومنشآت»[10]. ومن أجل أن يكون للاسرة دور ذو قيمة في الدولة الجديدة، أراد سنوحي الأب أن يتقرّب ابنه من صاحب العهد. فهو يذكّره بأنّ أمِنِمْحات (الثاني) هو الرجل الوحيد ذو الباع الطويل والهمّة القعساء والجرأة. وأن هذا الملك يمشي إلى أغراضه بأسلوب واضح صحيح. ذلك «لأنه قويّ ولأنّه يجري على سنّة العدل، وبغيته الأولى أن يرى بلاده يسودها الرضى والرخاء».

كان الملك راضياً عن سِنوحي الأب، فأعادَ إليه ضياعه وأملاكه، ورغب إليه في الانتقال معه إلى العاصمة الجديدة، لكنَّ الرجلَ آثر أن يقضي بقيّة عمره في موطنه، وأراد أن يشقّ ابنه سِنوحي طريقه بنفسه في هذا المجتمع الجديد، لذلك دفع به إلى البلاط في «إيِثت تاوي»، العاصمة الجديدة للدولة الجديدة. وقد كان سنوحي، على ما يروي في مذكراته، إن صحّت التسمية، خادماً في حريم الملك يقوم على خدمة نِفْرو زوجة سَنوسَرْت وهي أخته أي ابنة أمِنِمْحات (الأول).

قبل أن ننقلَ قصّة الرحلة التي قام بها سنوحي في بلاد الشام، والتي دامت ربع قرن، نودّ أن نشير إلى أنّ هذه الحادثة التي وقعت في أواسط القرن العشرين قبل الميلاد، وصلت إلينا في عدد من المدوّنات. وهذه تعود أقدمها إلى حوالي 1800 ق.م. وأحدثها إلى حوالي 1000 ق.م. وهي مدوّنة على خمس بَرْدِيّات وما لا يقل عن سبع عشرة فخارية. ويرى الباحثون أن برديَّةَ برلين (التي نشرت سنة 1909) هي الأهم. وقد حَظِيَت هذه «القصّة» بعناية عدد كبير من علماء «المصريّات» فنشروها وترجموها ودرسوها بين سنة 1908 و1948[11].

والأمر الذي كان مدعاةً للتساؤل بين الباحثين، وذلك لأنّه أصلاً غير واضح في مدوّنات سِنوحي التي وصلتنا، هو لماذا هرب سنوحي من مصر؟ إذ إنّ خروجه بسرعة وهو متخفٍّ لا يعني سوى الهرب. ويمكن إجمال ما يدور حول هذه المسألة فيما يلي: (1) كان سِنوسَرْت الأمير، حتى قبل أن يشركه والده في الحكم، ينظر إلى سنوحي (الابن) بشيء من الشك؟ (2) وكان هذا مبنيّاً، على ما يبدو، على تصرّف سِنوحي نحو أميرة ليبيّة، كانت تقيم في القصر، باعتبارها شقيقة لزوجة الابن الآخر لأمِنِمْحات، الأمير آني. (3) الزوجة الليبية كانت متهمة بتدبير المؤامرة ضد الملك (أمِنِمْحات) التي نجا منها بأعجوبة، وكانت شقيقتها ضالعة في الأمر، فظنَّ سِنوسَرْت بسنوحي شراً. (4) ولأنّ سِنوسَرْت كان يرى في اللّيبيّين خصوماً أقوياء عنيفين كان من

الطبيعي أن يحذر، أو على الأقل يتحاشى، من كان له بهم علاقة.

فكان من أثر ذلك أنّ سنوحي خشي على نفسه لما مات أمِنِمْحات واعتلى سِنوسَرْت العرش، وتولاّه رعب قوي، فآثر الهرب.

كان ذلك في شهر آذار/مارس سنة 1960 ق. م. وكان هروب سنوحي إلى بلاد الشّام، حيث قضى ربع قرن، وعاد بعد أن استدعاه الملك سِنوسَرْت نفسه كي يقبر في مقبرة أجداده.

وقد دوّن سنوحي أخبار هذه الرحلة الطويلة بعد عودته. ويرجّح الباحثون أنّ الرجل كتب هذا كلّه لا بقصد قصّ أخباره ورواية رحلته، بل ليوضح أنه لم يرتكب جريمة لما هرب من البلاد. بل هو يصرّ في مذكراته على براءته وعلى أنّه لا يدري لماذا امتلأ قلبه فزعاً وخوفاً. ولكن ثمة رأي يكرّره بعضُ الكتّاب وهو أن سِنوحي كان ضالعاً في المؤامرة التي أودت بحياة أمِنِمْحات الأول، هذا إذا صح أن الملك قُتل في مؤامرة لعلها كانت الثانية، بعد أن نجا في الأولى[12].

(2) مذكرات سِنوحي

يعرف الكاتب نفسه في مُفتتح مذكّراته بأنه كان أميراً بالوراثة وقاضياً ومشرفاً على أملاك وليّ الأمر في بلاد الآسيويين. وأنه كان صديق الملك المحبّب إليه والمرافق له. وأنّه بحكم هذا المنصب كان لصيقاً بالملك كما كان خادماً عند نساءِ القصر وخاصةً عند الأميرةِ زوجِ الملك سِنوسَرْت التي كانت ابنة الملك أمِنِمْحات.

ويخبرنا سِنوحي بأنه في شهر آذار/مارس (سنة 1960 ق. م.) صَعِد الإله ـ الملك، ملكُ مصر العليا والسفلى إلى أفقه وحُمِل إلى السماء حيث اتّحد مع قرص الشمس، الذي يمثّل آمون ـ رَعْ، وهو أبوه وخالقه.

وكان جلالته قد بَعَثَ بجيشٍ ضدّ اللّيبيّين بقيادة ابنه الأكبر، وكان هذا قد انتصر على الخصوم وحمل معه من الغنائم الشيء الكثير. وكان في طريق عودته، لما وصل رسل البلاط لينبئوا الأمير بوفاة الملك. وقد وصلِ الرسل عند المساء، فلم يتوان الأميرُ لحظةً واحدةً، وطار بصحبةِ مرافقيه، دون أن يُسَرِّب الخبر إلى الجيش. وقد طلب من أقاربه الذين كانوا معه في الحملة أن يلحقوا به على جناح السرعة.

سمع سِنوحي صوت أحدهم لما أذيع الخبر، فاعتراه فزع شديد يصفه بقوله: «سمعت صوته وهو يتكلم، ولم أكن أبعُدُ عنه كثيراً. فاضطرب قلبي، وارتخت ذراعاي وارتعدتْ أطرافي من الخوف. فقفزت مسرعاً لأجِدَ لنفسي مكاناً أختبىء فيه. وأخفيت نفسي بين شجرتين صغيرتين أملاً في أن أحول دون السائرين على الطريق من أن يروني».

واتّجه سِنوحي جنوباً، لكنّه لم ينوِ أن يذهب إلى العاصمة، فقد حسب أنها ستشهد اضطراباً في إدارتها، ولم يأمل أن يعيش بعد الملك أمِنِمْحات. وهذا هو الخوف المجهول السبب الذي سيطر على مشاعر الرجل.

تجنّب سِنوحي في سيره الدّلتا والأرض التي تغصّ بالسكان، وسار جنوباً في شرق، واجتاز النيل على مقربة من العباسيّة الحاليّة، ثمّ سار شمالاً حتّى وصل جدار الأمراء، مروراً بالجبل الأحمر الواقع شرقي القاهرة. وقد خشي أن يراه حرّاسُ الجدار، فتكوّر في شجرة صغيرة على الأرض، منتظراً هبوط الظلام. فلما أظلمت الدنيا استأنف سيره، وفي الصباح ألفى نفسه في «كِمْ وِرْ» عند البحيرات المرّة. وقد وصف سنوحي في مذكراته شعوره بقوله: «هذا هو طعم الموت!» فقد كان عطشاناً وكان فمه تكسوه من الداخل طبقة من التراب.

ثم سمع ثغاء الماشية، فاستجمع قوّته، ثم رأى جماعة من الآسيويين. وقد تعرّف عليه شيخهم،

الذي كان قد زار مصر، فأعطاه ماءً ثم طبخ له الحليب وقدّمه له، وصحبه إلى جماعته وأحسن إليه.

وانتقل سِنوحي كما يقول «من بلد أجنبي إلى بلد أجنبي آخر» حتى وصل جبيل (بيبلوس). ليس لدينا ما يدل، من كلام سِنوحي، عن الفترة التي احتاجها للوصول إلى جبيل، ولكن يبدو أنه لم يكن مسرعاً. وثمة أمر حري بتذكرنا وهو أنّ العلاقات التجارية بين مصر والشاطىء اللبنانيّ (الفينيقيّ) كانت قائمة يومها، ولو بشكل بسيط، الأمر الذي يسّر لسِنوحي الانتقال المستمر. ومع أنّ سِنوحي لا يقول شيئاً عن الطريق الذي اتّبعه فإننا نرجح أنّه سار برًّا عبر فلسطين. فالرجل كان فارًّا، والانتقال بحراً قد يعرّضه لأن يعرفه بعض التجار، فهو شخصيّة بارزة في البلاط الفرعوني، وهذا ما كان يتجنّبه هو بنفسه.

يقول سِنوحي: «واتجهت نحو «قِدِم» حيث قضيت سنة ونصف السنة». وقِدِم هذه أوقعت الباحثين في حيرة. فهي نفسها لفظة حائرة مبهمة، إذ إن معناها باللغات السامية «الشرق»، ولكن إلى أي مدى؟ هل كان المكان الذي ذهب إليه منطقةً في «البقاع» اللبناني؟ أم هل وصل سِنوحي فيما بعد إلى نقطة أبعد من هذه شرقاً (عبر جبال لبنان الشرقية) فيكون قد بلغ مناطق سورية الداخلية؟ إن الوصف الذي نقع عليه عند سِنوحي للبلاد التي أقام فيها فيما بعد هو: «اخذني أمّي - إنشي، حاكم ريتِنو العليا، إلى بلاد ياع وقال لي ستقيم معي، وهنا ستسمع الكلام المصري» ويضيف إلى ذلك وصفه لبلاد ياع بقوله: «كانت ياع أرضاً طيبة فيها التين والكرم بكثرة، بحيث انّ خمرها كان أغزر من مائها. وكان العسل فيها كثيراً جداً، وكذلك الزيتون. كانت أشجارها تحمل جميع أصناف الفواكه. وكان الشعير والقمح من غلّاتها. أما أنواع الأنعام فلا حصر لها».

ونحن إذا أخذنا هذا جميعه بعين الاعتبار وجدنا أنّ غاردنر كان مصيباً إذ استنتج أنّ سِنوحي أقام بين جماعةٍ من الفلاحين والبدوِ الرعاة، في مكان يقع في أواسط سورية أو جنوبها أو شمال فلسطين. ويجب أن نذكر قول أمّي - إنْشي لسِنوحي بأنه سيسمع الكلام المصري. وهذا يعني أنّ المصريين كانوا يمرون بتلك المنطقة. فهل كان هؤلاء تجاراً (وهذا كان أمراً شائعاً) أم أنّ عدداً من المصريين كان قد لجأ إلى المنطقة كما لجأ سِنوحي، وعندها يكون المكان بعيداً بعض الشيء عن الطرق المألوفة[13].

وهنا نقع على حديث تبادله سِنوحي مع أمّي - إنْشي، إذ سأله هذا: «لماذا جئت أنت [يا سنوحي] إلى هنا؟ هل وقع في العاصمة شيء خطير؟» ويجيب سنوحي (وقد دوّن هذا كلّه بعد عودته إلى مصر) بما يصح أن يكون تفسيراً لتصرفه، بقطع النظر عما إذا كان هذا هو الذي قاله للزعيم العموري أمّي - إنشي. وإجابةُ سِنوحي هي: «إنّ ملك مصر العليا والسفلى سِحْتِپ إيب رَعْ [أمِنِمْحات الأول] قد انتقل إلى الأفق، ليس ثمّة من يعرف ما قد يحدث بسبب ذلك». ثم أضاف سِنوحي، بشيء من الإبهام، «كنت قد عدت من حملة إلى بلاد تِمحِ [تِحنو/ليبيا] لما بلغنا الخبر المشؤوم. دبّ الرعب في قلبي، فوجدتني أسير في طريق الهرب. مع أنّه لم يقل أحد أيّ كلمة حول ذلك، ولم يبصق أحد في وجهي، ولم يُسمع قول يعني الإقلال من شأني، ولم يذكر اسمي أيٌّ من حملة الأبواق. لست أدري ما الذي حملني على المجيء إلى هذه البلاد. لقد بدا لي الأمر وكأن إلهاً دفع بي إلى ذلك».

عندها قال لي: «وكيف ستكون حال البلاد بدونه [الملك]، هذا الإله الكريم، وهو الذي انتشر الخوفُ منه في البلاد الأجنبية؟» فأجبته قائلاً: «إنّ ابنه قد دخل القصر بطبيعة الحال، وقد ورث أباه. فضلاً عن ذلك فإنّه [الإبن] إله لا مثيلَ له. وليس ثمة من يمكن أن يتفوّق عليه. إنّه سيّد العارفين والماهر في التخطيط والمجيد في التشريع. وتنقّلاتُه تتّفقُ تماماً مع

قيادته وسلطانه. إنّه هو الذي أخضع البلاد الأجنبية لِما كان والده في قصره وبعث بالنبأ عن نجاحه فيما أوكِلَ إليه... ما أسعد البلاد التي يحكمها. إنّه هو الذي سيوسّع تخومها، سيغير على الجنوب وينتصر وهو الذي سيضرب الآسيويين وسيقضي على أولئك الذين يجتازون المناطق الرمليّة [الذين يجتازون صحراء سيناء إلى الدلتا الشرقيّة]. اكتب إليه، اعلمه باسمك، ولا تقل كلمة سوء عن جلالته. إنّه لن يفعل إلاّ الخير نحو البلد الذي يمحضه الولاء».

وكان جواب أمّي - إنْشي لي: «حقاً إنّ مصر سعيدة إذ إنّها تعرف أنّه بلغ قمة النجاح. والآن أنت هنا، وستقيم معي. إن الذي سأصنعه لك هو أمر جيد».

ويستمرّ سنوحي في روايته فيقول: «لقد جعلني على رأسِ أولاده، وأزوجني ابنته الكبرى، وسمح لي أن أختارَ من بلاده (أرضه) خيرَ ما عنده على الحدود المصاقبة لبلاد أخرى. وهذه هي الأرض المسماة «ياع»، وهي الكثيرة التين والكروم، والتي تفيض عسلاً وتملأها أشجار الزيتون. وكانت تنمو على أشجارها جميع أصناف الفواكه. وتنتج الشعيرِ والقمح. وليس للأنعام فيها حصرٌ أو عدٌ. فضلاً عن ذلك فقد تجمع لي الكثيرُ من النعم بسبب حبّه لي. وقد ولاّني رئاسةَ أهم قبيلةٍ في بلاده. كان الخبز يقدم لي يومياً مع الخمور واللحم المطبوخ والطيور المشويّة وحيوان الصحراء البري، فضلاً عما كانت تصطاده كلابي. وقد كانت أشياء... كثيرة تعدّ لي، كما كان الحليب يطبخ أشكالاً كثيرةً مختلفةً».

«قضيت هناك سنوات عديدة، وقد شبّ أبنائي وأصبح كلّ منهم مشرفاً على قبيلته الخاصة به. وكان الرسول [المسافر] القادم من العاصمة [إيثِتْ تاوي] شمالاً أو المتجه إليها جنوباً يمر بي ويقيم عندي. لقد كانت عادتي أن أستضيف كلّ مارٍّ في منطقتي. لقد سقيت العطشان، وأرشدت الضالّ إلى الطريق الصحيح، وأنقذت الذي يُسلب. ولما تطاول الآسيويون بحيث انّهم أخذوا أنفسهم بمقاومة حكام البلاد الأجنبية الأخرى[14]، وقفت لهم بالمرصاد. وحاكم ريتِنو المذكور ولاني قيادة جيشه سنوات عديدة. وقد نجحت ضدّ كلِّ بلدٍ أجنبيّ حملت عليه، فأجليته عن مراعيه وآباره. لقد نهبت أنعامه وأسرت سكانه ونهبت طعامهم وقتلت الكثيرين من أبناء ذلك البلد، وكان ذلك بسبب قوة ذراعي وقوسي ودقة تحركاتي وتخطيطي الناجح. وقد لقيت نعمةً في عينيه [حاكم ريتِنو] فامتلأ قلبه حبوراً، وأحبّني ورأى ما أحمله من الجنان القوي، فأمّرني على أولاده وذلك لما رأى التفوق الذي حققته أسلحتي».

ويروي سنوحي كيف أن مقاتلاً من ريتِنو أراد أن يبارزه في عقر داره. وكان الرجل بطلاً لا يُشقُّ له غبار، وقد تغلب على جميع مقاتلي ريتِنو. وقد أعلن عن رغبته في قتال سِنوحي، إذ نوى أن يسلبه ثروته، وأن ينهب أنعامه. وقد أظهر المقاتل هذا كلّه بناء على تشجيع من قبيلته. وعندها تقدّم أمير ريتنو وتحدّث إلى سِنوحي في هذا الشأن، فأجابه هذا بقوله: «إنني لا أعرفه، ومن المؤكد أنني لست محالفاً له، بحيث انني أتنقل في دائرته بحرية. هل فتحت يوماً له باباً، أو هدمت له سوراً؟ [أي أن سِنوحي لم يقم نحو هذا الرجل بأي خطوة عدائية]. منِ الواضح أنّ موقفه هو عدائي تماماً وذلك لأنّه يراني أنفّذ أوامرك بدقّة. إنني ثورٌ ضالٌ في وسط قطيع غريب عنه، وها هو ثَورٌ يخص هذا القطيع يهاجمه!...».

ويحدثنا سِنوحي عن قبوله التحدّي، الذي كان سببه أنّه كان غريباً في وسط مسرح آسيوي. ثم يصف صاحبنا استعداده خلال الليل فيقول: «شدَدْت في الليل قوسِي، وأطلقت سهامي [تدريباً]، وقلبت خنجري بطناً بظهر وصقلت أسلحتي. ولما طلع النهار كانت قبائل ريتنو قد تجمّعت. إنها أثارت القبائل لحضور هذا القتال، ولعل نصف السكان

كانوا حاضرين، ولم يكن يهمّهم شيء سوى هذه المعركة. ثم تقدّم المقاتل مني حيث كنت أنتظره على مقربة منه. كان كل قلب يتحرّق من أجلي، وقد تأوّه الرجال والنساء عطفاً علي. وقد تساءلوا فيما إذا كان هناك رجل آخر قوي يستطيع أن يقاتله؟ ثم تناول ترسه وطَبَرْزَينه [فأس المعركة] ومرازِقه [رماحه القصيرة] وأطلق أسلحته لكنني تجنّبت سهامه، التي مرت بي الواحد تلو الآخر دون أن تسبّب لي أيّ أذى، ثم هجم عليّ، فأطلقت سهمي الذي غرز في رقبته؛ صرخ متألماً ووقع على وجهه، فضربته ضربة قاضية مستعملاً طَبَرْزَينه، ثم صرخت صرخة الظفر وأنا فوق ظهره، فزأر كلّ آسيويٍّ كان حاضراً. وصرخت بأعلى صوتي شكراً وامتناناً لمُنتو [إله الحرب عند المصريين]، فيما كان اتباعه يندبونه. عندها احتضنني هذا الحاكم، أمّي - إنْشي. بعد ذلك حَمَلْتُ أنا جميعَ متاع المقاتل، وأخذتُ جميع أنعامه. لقد فعلت به ما كان ينوي أن يفعله بي. أخذت كلّ ما كان في خيمته، وجرّدت معسكره مما فيه. أصبحتْ يومها عظيماً وازدادت ثروتي زيادة كبيرة، وأصبحتْ انعامي كثيرة جداً».

«وهكذا كان فعل الإله إذ أظهر رحمته على الرجل الذي كان قد تعرّض للوم الإله، فَضُلِّلَ به إلى بلدٍ غريب. أما اليوم فإن قلبه [قلب سنوحي] قد امتلأ خيراً»[15].

يحدثنا سِنوحي الآن عن ملك مصر العليا والسفلى الملك العادل خپر - كا - رَعْ [سِنوسَرْت الأول] الذي، لما بلغته أخبار سِنوحي وتفصيل الوضع الذي كان فيه، أرسل أليه، أكثر من مرة، رسائل من القصر الملكي كي يعيد السرور إلى قلبه. كما وصلته رسائل من الأولاد في القصر الملكي. وكان الملك يريد من سنوحي أن يعودَ إلى بلاده، ليرقدَ إلى جانب آبائه وأجداده.

وينقل سنوحي في مذكراته الأمر الملكي الذي تلقاه وفيه دعوة بالعودة إلى مصر. وهذا هو الرقيم الملكي.

«حورس، الإله الحي؛ وتحرسه الالهتان الاثنتان الحيّتان؛ ملك مصر العليا والسفلى، خَپر - كا - رَعْ، ابن رع: سِنوسَرْت[16] الحي القيّوم. هذا هو أمر ملكيّ إلى التابع [لنا] سِنوحي. اسمع، إنّ هذا الأمر الملكي قد أرسل إليك كي تعرف ما يأتي.

«لقد طوّحتْ بك الأقدار إلى البلاد الأجنَبيَّة من قِدِم إلى ريتنو، وقد كان كل بلد يدفع بك إلى بلد آخر، حسب رغبات قلبك. ما الذي فعلته حتى ينالك عقابٌ من أجله؟ إنّك لم تجدّف، لذلك لا تستحق عقاباً على كلامك، إنّك لم تسلُقْ جماعةَ النبلاءِ بلسان حادٍّ، بحيث يمكن أن تنال أذى مقابل ذلك. كلّ ما هنالك أنّ خطّة ما هي التي ملأت قلبك بالرغبة في التنقل، ولم يكن في ذلك ما تؤاخذ عليه. وسماؤك التي هي في القصر، أي الملكة، هي اليوم ثابتة ووطيدة. وها هو رأسها تغطيه شارة حكم البلاد. وها هم أبناؤها يقيمون في البلاط.

«هل في نيتك أن تخزن الكنوز التي يمنحونك إيّاها؟ هل أنت راغب في الإقامة في بلادهم؟ عد إلى مصر كي ترى البيت الذي شَبَبْتَ فيه وكي تقبل الأرضَ عند البوابتين الكبيرتين وتنضم إلى الحاشية. إذ لا شك في أنّك آخذ في الاتجاه نحو الشيخوخة، وقد فقدت حيويتك. تذكر، يا هذا، اليوم الذي تُنْقَلُ فيه إلى القبر، فتنتقل إلى حالة من المهابة والاحترام. عندها تُطَيَّب وتُلَفُّ على يد تَايْت [آلهة النسج] عند المساء [أي تحنط]. وسيُنَظَّم موكب جنائزي لك يوم إدخالك القبر، فيكون هناك تابوت «للمومياء مصنوع من الذهب، والرأسُ فيه من اللازورد، ويغطي هذا كلّه كساءٌ واسعٌ [كالسماء]. سَتُحْمل على زلّاجة تجرّها الثيران، يتقدّمك المغنون، وتُرقَصُ رقصة «المو» أمام مدخل قبرك، وتتمّ عندها مراسم إعداد مائدة القربان لك، ويقدّم القربان على

الأعمدة المعدّة لذلك، وهي الأعمدةُ المقدودة من الصخر الأبيض والقائمة وسط قبور الأبناء الملكيين. لا يجوز أبداً أن تموتَ في بلاد غريبة، ولن يرافقك الآسيويّون [في موكب الجنازة]. لا يجوز أن تُلَفَّ في جلد خروف، وقد أعدّ لك هنا حائط [مما يليق بك]. إن التَجْوَالَ في الأرض أمر طويل (منهك لك بعد أيام الشباب]. فكّر بمرضك، فتقتنع بالعودة.

يصف سنوحي ساعة تلقيه الأمر الملكي، الذي وصله وهو واقف يتوسّط قبيلته. فلما قرىء عليه، انحنى احتراماً، وتناول حفنةً من التراب ورشَّها على شعره. ثم دار في المعسكر وهو ثمل مسرور وكان يصرخ قائلاً: «كيف يمكن أن يتمَ هذا الخادم [للملك المصري] الذي أضلّه قلبه فلم يسر سواء السبيل، بل اتجه إلى بلادٍ بربريةٍ؟ لكن العناية التي انقذتني من الموت كانت هي هنا رؤوفة بي. إن «كا» ستمكنني من أن أنهي حياتي في بلدي».

وبعث سِنوحي بجواب على الأمر الملكي هو:

«باسم السلام. أيها الإله الطيب ملك الأرْضَيْن [مصر العليا والسفلى] محبوب الإله رَعْ والذي يدلّله مُنْتو ربُّ طيبة. إن «كا» تعرف قصة الهرب الذي قام به خادمك وهو يَعْمَهُ في جهله.

«وها هو هذا الخادم نفسه يقدّم الصلاة لسيده منقذِ [مخلّص] الغرب... ويقول إن عمله لا يمكن أن يُتَحَدَّث عنه». ويضيف بعد ذلك قائلاً: «إن هذا الهرب الذي قام به هذا الخادم لم يكن مخطّطاً، ولم يكن له في قلبي مكان، ولم يكن قد شغلني أمره. لست أدري تماماً ما الذي أصابني فأقصاني عن مكاني. لقد كان نوعاً من الحلم... لم يكن قد تملّكني خوف، إذ لم يكن أحد يركض خلفي، ولم أسمع كلمةً مهينةً قط، ولم يذكرُ أيُّ مناد اسمي قط. ومع ذلك كان جسمي يرتعش، وكانت قدماي ترتجفان، وكان قلبي يدفع بي [إلى السير] فإنَّ الإله الذي كان قد رسم هذا الهرب هو الذي كان يقصيني عن مكاني». وبعد أن يقول سنوحي، مخاطباً الفرعون عن بعد: «إن «رَعْ» قد زرع الخوف من سِنوسَرْت في قلوب الجميع، في الوطن وعند الأغراب، وإنَّ الملك هو الذي يملأ الأفق، فقرص الشمس يرتفع بناء على رغبته، وماء النهر يُشرب حسب إرادته، والهواء يُتَنَشَّقُ بأمره، ينتهي إلى القول بأنه سيلقي أعباء الوزارة جانباً، يعني بذلك المسؤولية التي تولاها في البلاد الغريبة نيابة عن الملك[17]!

وأخيراً جاء يوم الرحيل. فقضى سِنوحي يوماً كاملاً في تسليم أملاكه في «ياع» إلى أبنائه؛ فجعل الابنَ الأكبر مسؤولاً عن القبيلة، بما في ذلك الخدم والأقنان والأنعام والأشجار المثمرة وكل شجرة جيدة.

واتجه[18] سِنوحي نحو مصر، فولّى وجهه نحو الجنوب، وَجدَّ السير ومعه حاشية من البدو. فلم تمض أيّامٌ حتى وصل مسالك هورس على حافة المصب الشرقي للنيل. وقضى هناك بضعة أيّام حتى بلغ نبأ مجيئه العاصمة. وعندها جاء مندوب من قبل جلالة الملك، ومعه سفن تحمل الهدايا، للحاشية التي صحبت سنوحي إلى مصر. فتسلم كلّ هديتَه وعاد أدراجه. وأقلت السفينة الملكية سِنوحي حتى رست به على الشاطىء الممهد في عاصمة المملكة.

وضم سنوحي إلى الحاشية الملكية.

هذا نص تاريخي وضعه سنوحي في القرن العشرين قبل الميلاد. وقد وصل إلى أيدي الباحثين في خمسة أشكال على برديات، وهي وإن كانت تختلف فيما بينها، فالتشابه أكبر. والنص الذي اعتمدناه هنا هو النص الذي نشر سنة 1909، وهو الذي جاء في بردية برلين. والترجمة الانكليزية التي نقلنا عنها أجزاء من مذكرات سنوحي هي التي قام بها جون ا. ولسون أستاذ المصريات في جامعة شيكاغو سابقاً.

ونود أن نختم هذا الحديث عن رحلة سِنوحي بالملاحظات التالية التي يمكن اعتبارها اجابة عن

سؤال مطروح بطبيعة الحال: هل يمكن اعتبار هذا النص مصدراً تاريخياً؟ وأحسب أن الجواب أتى من قبل على أيدي الذين درسوا رحلة سنوحي أو مذكراته بأشكالها البردية والفخارية، فقبلوه من حيث الأصل. ولم يخف هؤلاء الباحثون أنهم لم يستطيعوا أن يحلوا كل لغز من الغازه الجغرافية أو التاريخية أو اللغوية. ولكنهم أكدوا لنا سوية هذه الوثيقة للاستشهاد التاريخي.

أما الملاحظات التي عنيناها فهي:

1 ـ إن سِنوحي يضع بين أيدينا وصفاً لمنطقة في جنوب سورية أو شمال فلسطين من حيث اقتصادها الزراعي. ويبدو أنها منطقة تمتزج في حياة سكانها الزراعة والرعاية مع شيء من البداوة. واشارة سنوحي إلى ما حصل له وناله عند أُمِّي ـ إنْشي يدل على تنظيم بدوي في أصله. فوحدة العمل والتنظيم عنده القبيلة.

2 ـ في اشارات سنوحي المقتضبة ما يدل على بدء تململ بين الشعوب التي كانت في بلاد الشام، ولعلّه أن يكون مقدمة لحركات الهكسوس في الفترة اللاحقة.

3 ـ هناك ما يدل على وجود تبادل تجاري بين مصر وأواسط سورية. فالأخبار كانت تنتقل عن طريق القوافل.

4 ـ ولا بد من القول إن سنوحي، في هذا النص، يظهر بارعاً في وصف تصرفاته وشعوره. فبعض مقطوعاته تكاد تنظم نفسها أبياتاً شعرية.

الحواشي

(1) ابرهيم، نجيب ميخائيل **مصر والشرق الأدنى القديم**، الجزء الأول (ط 3 القاهرة، 1960) ص 261.

(2) ابرهيم، ص 262.

(3) محمد، محمد عوض، **سنوحي** (القاهرة، لاتا) ص 37-38.

(4) ابرهيم، ص 263-264.

(5) ابرهيم، ص 264-268.

(6) ابرهيم ص 265-266 و269-270، محمد ص 108 و 119-124.

و Pritchard, James B. (Ed.)
ANCIENT NEAR EASTERN TEXTS (2nd éd., Princeton, 1955), pp. 418-9.

(7) ابرهيم، ص 271-272, 274.

(8) كان ملوك المصريين يحملون أكثر من اسم واحد، كما أن صيغ التسمية قد تنوعت بسبب كتابتها باللغة اليونانية. فأمِنِمْحات الأول يسمى أيضاً سِحْتِپ إيب رَعْ وأمِّينيس (الأول). وخليفته سِنوسرْت (الأول) يسمى أيضاً خپر كارَعْ وسيزوستريس (الأول)، وهذان هما الملكان الوحيدان اللذان نعنى بهما في هذا المقال.

(9) ابرهيم، ص 275-276.

(10) محمد، **سنوحي**، ص 10.

(11) الترجمة منقولة عن الانكليزية من Pritchard, *ANET* p. 18-23.

(12) Pritchard, *ANET*, p. 19, n, 5.

(13) المكان نفسه p. 19, nos 10-12.

(14) الكلمة الواردة في النص الهيروغليفي ترسم هكذا هيكو ـ خَسوف. وقد ارتأى البرايت وغيره أن هذه اللفظة المركبة قد تكون أصل كلمة «هكسوس»؛ والهكسوس هم جماع القبائل الآسيوية التي هاجمت مصر فيها بعد (في القرن التاسع عشر أو الثامن عشر ق.م.). ومعنى هذا أن هذه الشعوب التي كانت تقطن في بلاد الشام، والتي انضمت إليها شعوب طرأت على البلاد، كانت قد أخذت تتململ في القرن العشرين، وكأنها تعد نفسها للخطوة التالية. راجع:

Pritchard. *ANET,* pp. 20, n. 16; 229, n. 9; 247, n, 56.

(15) يقول مترجم مذكرات سنوحي إلى الانكليزية، جون ا. ولسون، إن سنوحي خط هنا قطعة عاطفية شعرية عن شوقه الكبير لبلاده مصر، لكن ولسون لم ينقلها إلى الانكليزية.

Pritchard, *ANET,* p. 20, n. 21.

(16) يرد اسمه في النص خطأ أمِنْمحات، لكن ولسون يستدرك الخطأ وينصح بقراءته سِنوسرْت، Pritchad, ANET, p. 20, n. 22.

(17) الترجمة الواردة هنا منقولة عن ولسون في:

Pritehard, *ANET,* pp. 19-22.

(18) محمد، سنوحي، ص 144 وما بعدها.